

الباب الثالث

حرية التفكير والتعبير فى الإسلام

موقف الإسلام من حرية التفكير والتعبير بوجه عام

يقصد بحرية التفكير والتعبير أن يكون للإنسان الحق في أن يفكر تفكيراً مستقلاً في جميع ما يكتنفه من شئون وما يقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير.

وقد أقر الإسلام هذا الحق في أوسع نطاق. فمنح كل فرد الحق في النظر والتفكير وإبداء رأيه عن أى طريق شاء.

وعلى هذا المبدأ الجليل سار الرسول ﷺ وسار الخلفاء الراشدون من بعده. فقد كانت حرية الرأي في عهدهم جميعاً مكفولة ومحاطة بسياج من القدسية. وباستقراء تاريخ هذه المرحلة الذهبية التي تمثل مبادئ الإسلام أصدق تمثيل لا نعثر على أية محاولة من جانب أولى الأمر للحجر على حرية الآراء. بل إن العمل بهذا المبدأ قد ظل مرعياً في عهد بنى أمية وصدر بنى العباس. فما كان الخلفاء في هذين العصرين ليحاربوا إلا

الآراء التى يعتقدون أنها تهدد سلامة الدولة أو تنشر الفتنة بين الناس وكان هؤلاء وأولئك يستوحون ما يسيرون عليه فى هذا الصدد من روح الإسلام ومبادئه. بل إن احترام بعض الخلفاء لحرية الرأى فى عصر بنى أمية وبنى العباس قد وصل إلى حد جعلهم يتخرجون من وضع أى قيد فى هذا السبيل. فقد كان الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز والمأمون بن هارون الرشيد وغيرهما يتناقشون بكامل الحرية وفى حضرة الخليفة نفسه فى شأن الأسرة المالكة ومبلغ استحقاقها للخلافة.

٢

موقف الإسلام من حرية التفكير العلمى

ويدخل فى الحرية الفكرية ما يسمونه بالحرية العلمية وحرية التفكير العلمى ، وهى أن يكون لكل فرد الحق فى تقرير ما يراه فى صدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان ، والأخذ بما يهديه إليه تفكيره وما يقتنع بصحته من نظريات ، والتعبير عن رأيه بمختلف وسائل التعبير . ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذه الحرية الفكرية الخاصة عن موقفه حيال الحرية الفكرية العامة الذى بيناه فيما سبق .

فالإسلام لم يحاول مطلقاً أن يفرض نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من هذه الظواهر. ولم يعرض القرآن ولا السنة الشريفة لتفاصيل هذه الأمور. وكل ما فعله القرآن في هذه الناحية أنه استحث العقول على النظر في ظواهر الكون، وحفز الناس على التأمل في هذه الشؤون واستنباط قوانينها العامة، وأثار في نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التي لا تثير الانتباه بطبيعتها لتكرر حدوثها وسيرها على وتيرة واحدة وإيلاف الناس النظر إليها كشؤون الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب وتتابع الفصول وتناسل الحيوانات وتكاثر النبات وطفو بعض الأجسام على الماء ونزول المطر... وما إلى ذلك من مسائل العلوم والفنون، فبيّن لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل، وأن فيها مجاًلاً كبيراً للنظر والعبرة والبحث العلمي.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾!؟^(١) ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ

(١) آية ١٨٥ من سورة الأعراف.

النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴿١﴾. ويقول: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ يُنْزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴿٢﴾. ويقول: ﴿وَمَنْ عَائِنَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنُكْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَلَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ عَائِنَهُ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٣﴾، ويقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿٤﴾..

وهكذا نرى توجيه الله تعالى لنا إذ طَوَّفَ بنا جميع أنحاء الكون سمائه وأرضه، حيَّه وميته، حيوانه ونباته وإنسانه،

(١) آية ١٦٤ من سورة البقرة.

(٢) آيتي ٤٣، ٤٤ من سورة النور.

(٣) آيتي ٢٢، ٢٣ من سورة الروم.

(٤) آيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية.

لا لشيء إلا لحثّ العقول على النظر والتدبر في هذه الظواهر واستنباط القوانين العامة الدقيقة التي تحكمها وتسير بمقتضاها، ولنتخذ من ذلك دليلا على قدرته وحسن صنعه:

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ^(١).

وفى جميع هذه الآيات وما إليها التي يزخر بها الكتاب الكريم لا نشتم أية رائحة لفرض نظرية علمية معينة، ولم يقصد القرآن بالتوجيهات الواردة فيها إلا ما ذكرناه من حث العقول على النظر في محتويات الكون، ثم ترك بعد ذلك لكل فرد كامل الحرية في تقرير ما يراه، والانتصار له، واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات.

ولا أدل على ذلك من أن القرآن في إجابته عن سؤال وجّه إلى الرسول عن مراحل القمر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه، قد تحاشى أن يدخل في تفاصيل هذه الأمور الفلكية وقوانينها، حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول، كما فعلت الكاثوليكية المنحرفة من قبل، وحتى لا يحجر على الأذهان النظر في هذه الأمور، واكتفى بأن يذكر بعض فوائد القمر، وأنه يحدد

(١) آية ٨٨ سورة النمل.

مواقيت الشهور والأيام التي تؤدي فيها شعائر الحج. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(١). فكأنه يقول لهم يكفي أن تعلموا فيما يتعلق بصلة الأهلة بشئون الدين أنها مواقيت للناس في الشهور والصيام وشعائر الحج. أما ما وراء ذلك من أسباب تزايد قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحياناً أو حجبهِ عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض... أما هذه الأمور وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية في بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها.

ولا أدل على ذلك أيضاً من أن الرسول ﷺ حينما أشار على بعض الناس بعدم تأبير النخل، أي تلقيح إناثها بطلع ذكورها، ثم تبين أن ذلك يؤدي إلى عدم إثمارها، ذكر أنه إنما تحدث في ذلك برأيه الخاص، وأن رأيه الخاص عرضه للخطأ والصواب، وأن هذا الحكم يسرى على كل ما يتحدث عنه من أمور الدنيا، وأن للناس الحق في البحث في أمور دنياهم وعلاجها على الوجه الذي تهديهم إليه تجاربهم وأفكارهم، وأنهم قد يكونون أعلم ببعضها من الرسول ﷺ

(١) آية ١٨٩ من سورة البقرة.

نفسه، وأن الأمور التي كُلف تبليغها إلى الناس من قبل الله، وهي التي لا يمكن أن يتطرق إليها الشك، مقصورة على شؤون الدين: عقائده وشرائعه. ونص هذا الحديث كما أخرجه مسلم في صحيحه عن موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعاً: «إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه، فإنني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنني لن أكذب على الله عز وجل». وفي رواية رافع بن خديج: «إنما أنا بشر؛ إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به؛ وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر». وفي رواية عائشة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»^(١).

(١) انظر تفصيل ذلك في شرح النووى على مسلم وفي رسالة التوحيد للإمام محمد عبده وتعليق السيد رشيد رضا في هذه الرسالة على هذا الموضوع وفي مقال لنا في عدد أكتوبر ١٩٦٣م في مجلة منبر الإسلام عنوانه: «حديث تأبير النخل وما يرشد إليه».

تعسف بعض الكتاب فى تفسير آيات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة

وانحرفاهم فى هذا عن مدلول اللغة وأغراض الكتاب الكريم ومن هنا تظهر لنا بشاعة الجناية الكبرى التى جناها بعض من أقحموا أنفسهم فى الدراسات الإسلامية إذ يحاولون أن يفسروا بعض آيات القرآن تفسيراً يجعلها منطوية على النظريات العلمية الحديثة، ويسيئون بذلك أبلغ إساءة، من حيث لا يعلمون، إلى الإسلام والقرآن من عدة وجوه:

١ - فهم أولاً يتعسفون كل التعسف فى تفسير آيات الكتاب الكريم، وتحميلها ما لا تحتل من المعانى وما لم يفهمه العرب منها، ولا يمكن أن يفهمه منها ملمّ باللغة العربية وأساليبها فى البيان، حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القرآن قد سبق البحوث الحديثة فيما قالت به من نظريات وما اكتشفته من قوانين، أو قد تنبأ بما عسى أن تنتهى إليه من نتائج، والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجه هؤلاء من كتب وما ينشرونه من مقالات.

فمن ذلك مثلاً ما يقوله أحدهم فى فصل عقده فى كتابه عن وحدة الخلق إذ يفسر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(١)، بأن النفس هى البروتون وأن زوجها هو الإلكترون، وهما العنصران اللذان تتألف منهما الذرة. وفى ذلك يقول، بعد كلام كثير عن الجسيمات التى تتألف منها الذرة: «وهذه الحقيقة العلمية التى يتبها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة فى صراحة ووضوح، إذ تقرر الآية ١٨٩ من سورة الأعراف أن كل ما خلق الله إنما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها. أليست هذه هى البروتونات والإلكترونات... الكهارب الواحدة موجبة وسالبة، أى النفس الواحدة.. الزوجية الجنس بين موجب وسالب»^(٢) - ومن الغريب أنه كان يكفى هذا الكاتب لاتقاء تخبطه هذا وتعسفه فى تفسير الآية الكريمة أن يقرأها كاملة ويتأمل معناها إذ تقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْلَحَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَلَاحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(١٨٩).

(١) آية ١٨٩ سورة الأعراف.

(٢) ص ١٣٦ من كتاب «القرآن والعلم الحديث». لعبد الرزاق نوفل.

ومن ذلك أيضاً ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده
 عن الأقمار الصناعية وغزو الفضاء إذ يفسر قوله تعالى:
 ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
 كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(١)، فيزعم أن الآية تشير إلى الأقمار
 الصناعية وسفن الفضاء وما تحمله من دواب. وفى ذلك يقول:
 «أطلقت روسيا أجهزة علمية سميت بالأقمار الصناعية
 تدور حول الأرض، وأتبعتها أجهزة أخرى تحمل نوعاً من
 الكائنات الحية لتدرس تأثير الانطلاق والارتفاع والإشعاع
 والضوء والجاذبية... وهذه الأقمار التى خرجت من الأرض
 فى الوقت الذى انتشر فيه الإلحاد لتتحدث عما فى الكون
 الغامض وتزيح بعضاً من هذا الغموض، ألا يمكن أن تكون
 هذه هى الدابة التى تنبأ بها القرآن الكريم فى سورة النحل
 (صوابه فى سورة النمل) فى الآية ٨٢ التى تقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ
 الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا
 يُوقِنُونَ﴾^(٢).

(١) آية ٨٢ من سورة النمل.

(٢) ص ١٨٧ - ١٩٠ من كتاب «القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل».

فلعله يزعم أن الكلبة «لايكا» التي وضعها الروس في أول تجربة لسفن الفضاء قبل أن يضعوا فيها أناسي من البشر قد تكلمت بلغة الكلاب في أثناء دورانها حول الأرض فنعت على الآدميين عدم إيمانهم بآيات الله!!

ومن ذلك أيضًا ما يقوله المؤلف نفسه في فصل عقده عن «الغشاء الأحوى» إذ يفسر هذا الغشاء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (٤) فجعله غشاءً أحوى (٥) بأن المقصود منه الفحم الحجري. وفي ذلك يقول: «لبنث هذه الكتل الضخمة من الأشجار والنباتات مطمورة في باطن الأرض سنين عديدة حتى اكتشفها الإنسان واستعملها وقودًا سماه فحمًا. أليس ذلك ما يقول به القرآن إذ أن الله هو الذى أخرج المرعى ثم جعله غشاءً أحوى» (٦) – فبحسب ما يراه هذا الكتاب يكون الله تعالى قد مَنَّ على الناس في القرن السابع الميلادى بتطور جيولوجى لم يكونوا قد عرفوه بعد ولا يستطيعون فهمه من عبارة الآية!

(١) آيتى ٤ ، ٥ من سورة الأعلى.

(٢) ص ٧٧ من الكتاب السابق ذكره فى هامش (٢) فى الصفحة السابقة.

ومن ذلك ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن انشقاق القمر، إذ يفسر قوله تعالى: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(١) فيقول: «إن القمر يقترب من الأرض، وهذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثاً (يريد أن يقول بطيئاً فجاء بكلمة تفيد ضد المعنى الذى يريده) إلا أنه بتوالى العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفوق الجاذبية منها تلك التى تجعله على بعده من الأرض الذى يحفظه.. وإن أول علامة على دخول منطقة الخطر هو حدوث زلازل مدمرة فى القمر حتى يصل الحال إلى زلزلة عنيفة دائمة تسبب انشقاقه. وإذا انشق وتهاوى مكوناً طبقات حول الأرض كما فى زحل، أفلا يؤثر ذلك فى جاذبية الكواكب وأجرام تمسكها جاذبية القمر نفسه؟... فهلا يكون ذلك دليلاً على قيام الساعة؟... ويكون انشقاق القمر لذلك دليلاً على اقترابها؟ أولاً يكون القرآن قد سبق العلم الحديث بعدة قرون؟ أولاً يلقي ذلك بضوء على تفسير الآية الأولى من سورة القمر التى تقول: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(٢)؟!»^(٣)

(١) آية ١ من سورة القمر.

(٢) نقلنا هذا النص بعباراته الريبكة نفسها من ص ١٦٠ من الكتاب السابق ذكره فى التعليق السابق.

وهذا قليل من كثير مما حواه هذا الكتاب العجيب وما تحويه كتب أخرى على شاكلته. وانظر إلى أى مدى يصل التعسف بهؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها ما لا تحتمل، وفى التلاعب بكلام الله واتخاذ هزواً.

٢ - ولا يقتصر الأمر على تعسف هؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها من المعانى ما لا تحتمل، بل إنهم بمسلكهم هذا يعرضون كلام الله للكذب والتكذيب: تعالت كلمات الله عن ذلك علواً كبيراً، وذلك أن كثيراً من النظريات العلمية ليست ثابتة. ولم تقل الكلمة النهائية فيما تعالجه من ظواهر. وقد تظهر كشوف أخرى تبين عن خطئها أو عن نقصها. فإذا فسر كتاب الله على وجه يتفق مع نظريات حاضرة، ثم ظهر عدم صحتها فيما بعد، فإن هذا يدعو إلى تكذيب كتاب الله، أو على الأقل زعزعة ثقة الناس بحقائقه.

٣ - وهم بذلك أيضاً يضمنون الإسلام بموصمة هو منها براء إذ يحاولون بذلك أن يظهروا القرآن بمظهر كتاب يقرر النظريات العلمية على أنها عقائد دينية نزل بها الوحي الأميين من قبل الله تعالى. وهذا مخالف لاتجاه الإسلام

وروحه، ولما يحث عليه القرآن من التأمل فى ظواهر الكون
واستنباط قوانينها العامة، ولما يقرره من مبادئ سامية
تتعلق بحرية التفكير والتعبير.

